

إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها

الحمد لله السميع العليم، يعلم السر وأخفى وهو بكل شيء عليم، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، والصلاة والسلام على سيد الأتقياء، وإمام الصالحين الأولياء، خير الرسل والأنبياء

امابعد

فلا يزال الإنسان في هذه الحياة الدنيا بين الخطأ والصواب، والحسنة والسيئة - إلا من عصم الله - حتى يلقي ربه، فيجد ما عمل حاضرًا ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ الكهف 49

تعرض الأعمال على الله فلا تخفى منها خافية، هناك وفي تلك الساعة يتذكر الإنسان ما قدمت يداه، وينظر ما عملت يمينه ويسراه، فتخرج الفضائح، وتبلى السرائر، ويفاجئ كل عامل بما أسرَّ وأعلن، يذكره الله - تعالى - بكل صغيرة وكبيرة ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَنْطَرٌ﴾ القمر 53

حينئذٍ تظهر الحقائق، فيبرز للناس رجال على هيئة أهل الدين والصلاح، لم يكن يرى منهم إلا كل خير، ولهم أعمال كجبال تامة؛ لكنها تذهب كلها يوم القيامة هباءً منثوراً؛ بعد التعب والنصب، والجد في العبادة والاجتهاد في الدنيا، فما سبب ذلك وعلته؟

يبينها المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - إذ يقول في الحديث الذي رواه ابن ماجه - رحمه الله - عن ثوبان - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ((لأعلمن أقواماً من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تامة بيضاء؛ فيجعلها الله - عز وجل - هباءً منثوراً))، قال ثوبان: يا رسول الله صفهم لنا، جلهم لنا أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم!! قال: ((أما إنهم إخوانكم، ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم أقوام إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها)) رواه ابن ماجه

وما أهم أن نتأمل هذا الحديث العظيم الذي يكاد قلب السامع له أن ينفطر خوفاً أن يكون ممن اتصف بشيء مما فيه، حين يأتي يوم القيامة وهو فرح بما قدم من الصالحات، مطمئن بما عنده من القربات، واثق بما بذل من جهود وأعطى من هبات!!

وإذا كان صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثوبان - رضي الله عنه - يخاف أن يكون منهم، ويحذر أن يكون ممن جملتهم؛ فماذا سنقول نحن والنقصير قد ملأ حياتنا، ومنسوب الإيمان قد قلَّ في قلوبنا - إلا من رحم الله -؟

يقول ثوبان - رضي الله عنه - : صفهم لنا، جلهم لنا، فيجيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - بما لم يكن في الحسبان، ويخبر - بأبي هو وأمي - أنهم من المسلمين، ولهم من الأعمال الجبارة ما لهم؛ من قيام الليل، وصدقة، وصيام؛ لكنهم جعلوا الله - عز وجل - أهون الناظرين إليهم عندما راقبوا الناس، فعملوا في الظاهر ما يخالف الباطن، ونسوا أو تناسوا أن الله بكل شيء عليم، وأنه ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ المجادلة 07

وما أهم أن يتذكر كل واحد منا ذلك، وأن يربي نفسه على الخوف من الله في السر والعلن ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ

مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ الملك-12 - ولنقرأ ما جاء في فضل مراقبة الله - جل في علاه - من النعيم المقيم، والحبور والسرور ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ مِنَ الرَّحْمَنِ-46- وقال - تعالى - : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ

الْمَأْوَىٰ﴾ النازعات-40-41

وإن مكر الله - تعالى - لا يأمنه إلا الخاسرون الذين يكتنون على معصية الله، وارتكاب محارمه؛ حتى يفجأهم بأمره الذي لا يُرَدُّ عن القوم الجرمين، **{أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ}** {الاعراف-99} - وها نحن نجد من الناس من كان قد ظهر عليه الصلاح والتدين، ولا يخرج من فمه إلا كل حسن من الكلام، ممن كان من المسارعين في الطاعات؛ وبعد كل ما كان عليه من خير وصلاح فجأة نراه قد غيّر مسيرته، وانقلب على وجهه، وتكذب الصراط الذي كان من أهله، واعتراه الحور بعد الكور، واجتالته الشياطين، واقتحمت ساحته جنود إبليس اللعين!

ولو تأملنا في أغلب من كان هذا حاله، وسألنا عن سببه تغيره؛ لوجدنا ذنوب الخلوات هي من كانت تنخر في دينه، حتى هزل عمله وضعف - وإن كان الناس يرونه حسناً -؛ ويلقاه يوم القيامة هباءً منثوراً - نعوذ بالله من هذه الحال، ومن أحوال أهل النار -، وقد أجمع العارفون بالله بأن ذنوب الخلوات هي أصل الانتكاسات، وأن عبادات الخفاء هي أعظم أسباب الثبات يقول ابن رجب الحنبلي - رحمه الله -:"وإن خاتمة السوء تكون بسبب دسياسة باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس؛ إما من جهة عمل سيء ونحو ذلك؛ فتلك الخصلة الخفية توجب سوء الخاتمة عند الموت" وفي هذا الباب يمكن أن يدخل حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - إذ يقول: حدثنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو الصادق المصدوق: **((أن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً أو أربعين ليلة، ثم يكون علقة مثله، ثم يكون مضغة مثله، ثم يبعث إليه الملك فيؤذن بأربع كلمات، فيكتب رزقه وأجله، وعمله وشقي أم سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينها وبينه إلا ذراع؛ فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع؛ فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها))** رواه البخاري

ويفسر ذلك حديث سهل بن سعد الساعدي - رضي الله عنه - الذي يقول فيه الرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : **((إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة))** رواه البخاري وأما لا يبدو للناس فلا يعمله إلا الله الذي يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء

إن مراقبة الله في السر والعلن مما يكسب القلب نوراً وضياءً، وما تُرْفَعُ به الدرجات في الدنيا والآخرة؛ يقول الله - جل في علاه - : **{وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بَايَاتِنَا يُوقِنُونَ}** {السجدة 240} وهذه المراقبة هي ما فعله يوسف - عليه السلام - عندما عُرضت عليه الفتنة، وازين له الباطل؛ فصبر واتقى، وكان من الحسنين الخائفين من رب العالمين، فوجد خير ذلك الصبر، وخير تلك التقوى في الدنيا قبل الآخرة **{قَالُوا أَلَيْكَ لَأَنَّتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}** {يوسف-90}

وإن مراقبة الله - تعالى - تورث صاحبها فراسة يتعرف بها على الأمور؛ بخلاف من أسرته ذنوب الخلوات يقول ابن القيم - رحمه الله - : "وكان شجاع بن شجل الكرماني يقول: من عمّر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغصَّ بصره عن المحارم، وكفَّ نفسه عن الشهوات، واعتاد أكل الحلال؛ لم تخط له فراسة، وكان شجاع هذا لا تخطئ له فراسة، والله - سبحانه - يجزي العبد على عمله بما هو من جنس عمله، ومن ترك شيئاً عوضه الله خيراً منه؛ فإذا غص بصره عن محارم الله عوضه الله بأن يطلق نور بصيرته عوضاً عن حبسه بصره لله، ويفتح له باب العلم والإيمان، والمعرفة والفراسة الصادقة"

فإن الله في التوبة والعودة إلى الله مما كان في الخلوات، وما أخفيناه عن الناس مما لا يخفى على السميع البصير، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ولنملاً الخلوات - التي كانت لا تخلو من الهفوات - بالطاعات، والقرب من رب الأرض والسماوات، لننير ما كان من ظلمة

المعاصي في تلك الظلمات بنور التوبة والإنابة، ولنغسل ما كان من خطايا في الخفايا بدموع الندم، والرجوع إلى ذي الرحمات،
فاللهم اغفر لنا أجمعين، وهب المسيئين منّا للمحسنين، وارحمنا يوم الدين، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم،
وصل وسلم على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

--